الفصل الثاني عشر

تطور صناعة الكتاب في أوربا
خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر

حدثت خلال هذين القرنين تطورات سياسية ودينية واقتصادية وثقافية ضخمة لم تمر دون ان تترك اثارها على الكتاب وصناعته .

فقد ظهر الاصلاح الديني في القرن السادس عشر وانشقت الكنيسة على نفسها وظهرت الحركة البروتستانتية التي دعت الى اصلاح الكنيسة واعتمدت على نشر الكلمة المطبوعة بين الجماهير مما ادى الى انتشار الكتب الدينية ، كما دعت الى استعمال اللغة القومية في العبادات بدلاً من اللاتينية مما ادى الى رقي وازدهار اللغات القومية . ولقد نتج عن حركة الاصلاح الديني التي بدأها لوثر في سنة ١٥١٧ م والاصلاح المعاكس حروب كثيرة جداً مما ادى الى احراق الكتب وتدمير المكتبات ، وكان مسرح هذه الحوادث المانيا في الاعم الاغلب فانحطت حركة طباعة الكتب فيها لهذا السبب . ولقد برزت في هذا العصر الدول القومية الكبرى وبدأ الصراع بينها من اجل السيادة والاستعمار كفرنسا وانكلترا وهولندا واسبانيا ، وشاهدت نهاية هذا العصر افول نجم كل من اسبانيا وهولندا وبقيت فرنسا وانكلترا في الميدان .

ولقد شجع الملوك ، ولاسيما ملوك فرنسا ، الفنانين والكتاب والادباء واغدقوا عليهم المنح والاموال مما كان له اثره في ازدهار فن الكتاب في فرنسا في هذين القرنين من الزمن . كذلك انتقل فن الطباعة في اواخر هذا العصر الى العالم الجديد وفتحت بذلك امامه افاق واسعة وامكانات ضخمة .

ولقد استغل لوثر وانصاره في المانيا ، الذين ثاروا ضد الكنيسة الكاثوليكية وسلطتها وفسادها ، الطباعة احسن استغلال لنشر مبادئهم بين الناس . وكانت العادة سابقاً ان تنشر الكتب الدينية باللغة اللاتينية ، فقام لوثر بنشر كتبه والف

هذه الكتب باللغة الالمانية وطبعها باعداد ضخمة . ولقد انهالت سيول المطبوعات على المانيا والبلاد المجاورة اعتباراً من سنة ١٥١٧ م فما بعد ، ووجدت به الحركة الدينية الجديدة سلاحاً من امضى اسلحتها ، حتى انه يحق القول ان الانتصار السريع الذي ناله الاصلاح الديني ، انما يرجع الفضل فيه الى اختراع الطباعة .

ومن الجلي الواضح ان الغاية من الطباعة لم تكن آنذاك النواحي الفنية ـ جمال المظهر والثوب الزخرفي للمطبوع ـ اذ كانت المطبوعات الدينية الخاصة بالمناسبات تباع بثمن بخس لتحقيق الاهداف التي يريدها المصلحون الدينيون . ولذلك فقد انحط نوع الورق واستعملت في الزخرفة الكليشيهات التالفة للزخارف المحفورة على الخشب الى النهاية ، واصبحت الطباعة بالتدريج عملية آلية قبيحة .

كان هذا هو الاتجاه العام للغالبية العظمى من مطبوعات عصر الاصلاح الديني ، فيما عدا بعض الحالات النادرة جداً . ومع هذا يجب الانسى ان الاصلاح سبب نشر الكتاب بين افراد الشعب الى حد لم يكن معروفاً آنذاك ، وبلغ تأثيره حداً كبيراً ، بحيث ننسب ، بحق ، اصل الجهود المبذولة في أيامنا هذه ـ في اوربا ـ من اجل التعليم الشعبي الى اهتمام اللوثرية بالحياة العقلية لابناء الشعب .

ولايقتصر هذا التدهور في مستوى الطباعة على الكتب الشعبية الرخيصة المعدة للتوزيع على افراد الشعب لتعليمهم مبادىء الديانة الجديدة او الدفاع عنها ، وانما يشمل ايضاً المطبوعات الدينية البروتستانتية وكتب التوراة المصورة ، فلا يمكن ان توازن بمثيلاتها من الكتب الكاثوليكية المطبوعة في نفس الفترة . ولقد انتهى العصر الذهبي للكتب الدينية الكبيرة حوالي نهاية القرن السادس عشر ، كما اختفت الطبعات الخاصة العديدة التي كانت تنشرها الاسقفيات .

ولقد احتلت المانيا الشمالية المكانة الاولى في كل المانيا في القرن السادس عشر وتحولت مدينة ووتنبرغ الى مركز هام في عالم الكتب . كما صار انتاج لوثر الغزير في العظات والمؤلفات الدينية الجدلية والتهذيبية موضع تقليد متعدد من قبل

المطابع ، كما ساعد التجار المتجولون على تنشيط بيع هذه الكتب نشاطاً ضخماً بزيادة نشر التوراة والمزامير باللغة الالمانية .

ولقد نفدت خلال ثلاثة شهور الطبعة الاولى من ترجمة العهد الجديد للوثر والتي طبعت سنة ١٥٢٢ م في ووتنبرغ في خمسة الاف نسخة على الرغم من ارتفاع ثمنها النسبي . ثم اعيد طبع هذا الكتاب بكميات هائلة (مائة الف نسخة) .

ولكن طباعة الكتاب وصلت مرحلة راقية كل الرقي في فرنسا على يد فنان الكتب القدير غودفروا ثوري . كان ملوك فرنسا آنذاك ملوكاً متنورين جمعوا حولهم العلماء والفنانين ، ولذلك ازدهرت في فرنسا نهضة ادبية ، وكان فن الطباعة مزدهراً ، ولقد ارتقى هذا الفن رقياً عظيماً عندما هجر فنان الكتب غودفروا ثوري ميدان العلم الى عالم الفن حوالي سنة ١٥٢٠ م .

كانت الحروف القوطية لم تزل سائدة في عالم الطباعة في فرنسا ، وان يكن الاثر الايطالي قد بدا في الظهور في هذا الميدان بحيث ان قد بدأ استخدام الحروف الرومانية التي ادخلت الى باريس سنة ١٥٠٢ م في طبع كثير من الكتب الفرنسية . غير ان ازدهار الحرف الروماني وتنسيق حركة الكتاب لم يبدأ في فرنسا الا على يد توري المذكور آنفاً . فقد كان توري ذا مواهب عالية كرسام وحفار للكليشيهلت الزخرفية الطباعية . وقد درس علوم اللغة وصار استاذاً لها في كلية برغونديا في باريس ، وزار ايطاليا مرتين في شبابه ، وما ان عاد الى باريس سنة ١٥١٨ م حتى دخل ميدان الطباعة مستوحياً النماذج الايطالية فصار تاجر كتب وطابعاً ، وما لبث ان احتل بسرعة مكانة مرموقة في هذا الميدان بفضل مواهبه العديدة كرسام وحفار وصاهر للحروف وصاحب نظريات في فن الطباعة .

وقد انعكست روح النهضة في مؤلفاته وبشكل خاص في كتاب من اشهر كتبه اصدره سنة ١٥٢٩ م بعنوانChampfleury ، وهو يعالج في كتابه هذا تصحيح الاسلوب ، كما يعالج الجمال الفني للطباعة . ويعتبر هذا الكتاب من اشهر واوائل الكتب التي تحاول تحديد النسب بين حروف الطباعة واعطاء نظريات عامة تتعلق بالزخرفة وعلاقتها بالنص . ويعتبر هذا الكتاب عملاً مبتكراً ويبدأ عصراً جديداً في تاريخ فن الكتاب الفرنسي .

ولقد خطت الطباعة كلها ، والحروف الرومانية بخاصة ، خطوات واسعة في سبيل التطور ، وقد تم هذا التطور على يد على يد اسرة أستين الشهيرة التي نبغ منها عدد كبير من الطابعين وظلت اكثر من نصف قرن اكبر طابع للكتب في فرنسا كلها .

كذلك اشتهر في اواخر القرن السادس عشر في هولندا طابع وفنان من اشهر من عرفه عالم الكتب هو الفنان بلانتان الذي اسس مطبعة في أنفرس واشتهر بفنه الى حد ان اسمه صار علماً في تاريخ الطباعة .

انتج بلانتان خلال حياته واثناء اشتغاله بطبع الكتب في مدينة انفرس حتى وفاته سنة ١٥٨٩ م اكثر من الف وستمائة كتاب ، وكان بعضها على اعظم جانب من الاهمية . وطبع باغلب اللغات الاوربية . ولقد اصدر توراة كبيرة في ثمانية مجلدات ، طبع نصها بخمس لغات مختلفة بين عامي ١٥٦٩ و ١٥٧٣ م .

وكان لبلانتان سوق واسعة جداً واغرقت كتبه المانيا واسكندنافيا وفرنسا واسبانيا وانكلترا ، وقد طبع كتباً علمية ولغوية وقانونية ورياضية وغير ذلك ، كما طبع عدداً كبيراً من الكتب الدينية ، وكلها تحمل شارته الطباعية ، وهي عبارة عن يد وفرجار .

وقد استعمل بلانتان الحروف الرومانية القوية العريضة وجعل لها عدداً من المميزات الفنية حتى تفوقت على الحروف الاخرى التي كانت سائدة آنذاك . وقد كان له تلاميذ واقارب ورثوا مصانعه واعماله ، وظلت هذه المصانع والمطابع حية تنتج حتى سنة ١٨٧٦ م عندما اشترت الحكومة البلجيكية البيت الذي كان مقراً لمؤسسة بلانتان بانفرس واقامت به متحفاً سمي باسم متحف بلانتان ـ مورتيوس ـ وهو مشهور في جميع ارجاء العالم . ولم تزل المطابع القديمة موجودة فيه وتشرح بالدليل العملي ظروف الطباعة آنذاك .

ويعتبر تأسيس ريشيليو للمطبعة الملكية في اللوفر سنة ١٦٤٠ م حدثاً هاماً في تطور صناعة الكتاب في فرنسا في القرن السابع عشر ، اذ خرجت منها سلسلة كاملة من الكتب الفاخرة ، منها توراة سنة ١٦٤٢ م .

واشتهر في فرنسا في هذا القرن الفنان لوكلير Lecler الذي كان شغوفاً بالرياضيات . ومع ذلك ، وعلى الرغم من النشاط العظيم الذي ظهر في فرنسا في حقل الكتب وطبعها في القرن السابع عشر ، الا اننا لانجد في هذا القرن ناشرين فرنسيين يمكن موازنتهم بامثال انطوان فرار او سيمون فوستر .

وتعتبر بلجيكا وهولندا البلدين اللذين احتلا مكان الصدارة في فن انتاج الكتب في هذا القرن . ولابد من ارجاع اسباب هذا التفوق الى السيادة السياسية للاراضي الواطئة في ذلك العصر من ناحية ، والى تفوق مركزها في عالم العلم من ناحية اخرى . ولاعزو في ذلك فقد كانت جامعة ليدن يؤمها افواج الطلاب من جميع انحاء الدنيا ، ممن وفدوا عليها لحضور دروسها التي كان يلقيها عدد كبير من مشاهير الاساتذة .

ولقد اشتهرت في هولندا اسرة الزفير Elzevir في ميدان الطباعة شهرة واسعة حتى ان سمعتها انتشرت في كل اوربا في هذا القرن . بدأ لودفيك الزفير عمله ببيع الكتب للطلاب في جامعة ليدن ؛ ثم توسع في تجارة الكتب تدريجياً توسعاً فاق الوصف ؛ اذ ان نشاطه قد امتد من حدود مدينته ـ ليدن ـ ووطنه ، فبنى فرعاً دائماً له في فرانكفورت كانت تشتري منه كل المانيا الجنوبية حاجتها من الكتب الاجنبية .

ولقد خلف لودفيك الزفير اسرة كبيرة من الناشرين والطابعين وامتد نشاطها الى الكثير من المدن الهولندية ، مما اعطى اسم هذه الاسرة شهرة واسعة في كل انحاء اوربا . وكان اشهر افراد هذه الاسرة شقيق لودفيك وحفيده ، وتعتبر فترة نشاطهما (١٦٢٥ ـ ١٦٥٢ م) ذروة مجد الزفير . ولقد اشتهرت هذه الاسرة بطبعاتها الشعبية ذات الحجم الاثنى عشر لعدد كبير من الكتب . وقد اعتبرت هذه الكتب شيئاً ذا صبغة شعبية ومالبث الطلب ان اشتد عليها بسبب حجمها السهل وثمنها المعتدل . وهذا يذكرنا بطبعات الدوس للكتب الكلاسيكية في البندقية . ولكن هذه الطبعات لاتوازن بطبعات الدوس من حيث دقة النص ، الا انها بفضل نقاء حروفها وصفائها اكتسبت مظهراً مهيباً .

كذلك قامت اسرة الزفير بطبع كتب اخرى غير كلاسيكية بجانب الكتب الكلاسيكية . ولقد استقر احد احفاد لودفيك الزفير ، واسمه لودفيك الصغير في امستردام وطبع كتب الفيلسوف الفرنسي ديكارت ، كما قام بطبع مؤلفات مشاهير الكتاب الفرنسيين من امثال موليير وكورني وراسين . . .

لقد فاق نشاط اسرة الزفير في حقل تجارة الكتب نشاط جميع معاصريهم ، فلم يضارعهم احد في سعة علاقاتهم التجارية ، وقد هيأوا للادب الفرنسي انتشاراً كبيراً باعادة طبع الكتب الفرنسية ونجحوا في عقد صفقات ضخمة مع انكلترا ، ذلك ان كل تجارة الكتب التي قامت بين انكلترا والقارة الاوربية كانت تمر آنئذ بهولندا ، وكان لاسرة الزفير المكانة الاولى في هذا الميدان .

كذلك وجد في هولندا مؤسسة طباعية اسستها اسرة بلاي ، وهي اسرة اشتهرت بطبعها المصورات والاطالس والخرائط ، وقد نالت هذه الاسرة شهرة واسعة بطبعها اطلساً شهيراً كل الشهرة وضعه احد ابنائها جوان وتم طبعه سنة ١٦٠٢ م في احد عشر مجلداً بحجم النصف . وعلى الرغم من كبر حجم هذا الاطلس وارتفاع ثمنه الا انه كان مطلوباً للغاية ، ولم يزل هذا الاطلس عظيم القيمة حتى ايامنا هذه .

واذا القينا نظرة عجلى على تطور فن الكتاب ـ ونقصد بفن الكتاب زخرفته وتجليده وما الى ذلك من عناصر جمالية تضفي على الكتاب مسحة جمالية ـ وجدنا ان هذا العصر شاهد اتجاهين متعاكسين : الاول اضمحلال الحفر على الخشب ، والثاني ازدهار الحفر على النحاس .

ولقد ظل الحفر على الخشب سائداً في اوربا اوائل القرن السادس عشر ، وان يكن فقد الكثير من اهميته وقيمته الفنية . ولقد اصبحت فرانكفورت في المانيا مركزاً لهذا النوع من النشاط الفني ، فقد وجد فيها عدد من كبار الفنانين الكبار المتخصصين في تزيين الكتب وقاموا بنشاط كبير وزخرفوا عدداً كبيراً من الكتب ، ومن اشهرها واكثرها شيوعاً كتاب مصور بصور محفورة على الخشب اصدره سنة ١٥٦٤ م جوست آمان Jost Amman بعنوان **وصف جميع حرف الارض** .

ونجد في هذا الكتاب اقدم الصور التي تمثل مطبعة ومصنعاً للتجليد وآخر للورق . . .

غير ان الحفر على الخشب مالبث ان اضمحل تدريجياً بوجه عام خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر ؛ ولكن ماان بدأ الحفر على الخشب يضمحل حتى أطل برأسه الحفر على النحاس الذي كان ظهر في الكتب عرضاً ، ودخل في صراع عنيف مع الحفر على الخشب حتى تمكن في النهاية من طرد الحفر على الخشب والحلول محله . وكان الطابع بلانتان قد استخدم الحفر على النحاس في الكثير من طبعاته الجميلة على نطاق واسع ، واصبح الحفر على النحاس مطلوباً للغاية ، ولم يستعد الحفر على الخشب عرشه الذي فقده الا في القرن التاسع عشر .

ظهر اول كتاب مصور بصور محفورة على النحاس في فلورنسة سنة ١٤٧٧ م ، اما في فرنسا فقد ظهر لاول مرة سنة ١٤٨٨ م في ليون ، ولقد استخدم هذا الفن في القرن السادس عشر عرضاً .

طريقة الحفر على النحاس :

كان الرسم في عملية الحفر على الخشب ، يحفر على اللوحة الخشبية بحيث يكون ناتئاً ، ويسمى ذلك باسم (الطبع على البارز) . اما في الحفر على النحاس فعلى العكس من ذلك ، كان الرسم بعد نقله على لوحة النحاس يحفر فيها حفراً باطنياً ، فكان طبع الصور يتم بواسطة المحفورات الغائرة هذه . وعلى هذا كان الطبع يتم على دفعتين عند طبع كتاب يحوي صوراً محفورة على النحاس ، وذلك بطبع الصور اولاً ، ثم النص بعد ذلك ، او العكس .

استعمل الحفر على النحاس ، اول الامر ، من اجل طبع لوحات مستقلة لتظهر في الكتب كصورة منفصلة عن النص ؛ ثم ظهرت اللوحات المحفورة على النحاس في الكتب الكبيرة المصورة التي زاد انتاجها تدريجياً ، وشاركتها في ذلك الكتب العلمية الكبيرة المصورة التي كان للصور فيها دور خاص ، وكذلك الحال

في كتب التاريخ الطبيعي والجغرافيا وتاريخ الفن والاثار . وظهر خلال القرن السابع عشر عدد كبير من الكتب الضخمة المحتوية على لوحات ونماذج من فن العمارة والحفريات ، او الاشياء التي عثر عليها في الحفريات الاثرية ، كما نشر عدد كبير من الكتب المصورة التي تصف الرحلات ، والمؤلفات الجغرافية المزودة بالخرائط والمناظر الطبيعية ومناظر المدن والآثار . ومن اشهر امثلة هذا النوع من الكتب كتاب ثيودور دوبيري عن الهند المنشور في عدة مجلدات بين عامي ١٥٩٠ و ١٦٢٥ م وكتاب**وصف المدن** لجورج براون .

كان الحفر على النحاس صالحاً بصفة خاصة لطبع اللوحات الفنية المحفورة المصورة ، وذلك بفضل قدرته على ابراز الفروق بين الالوان بدقة وقدرته على تقليد الاثر الفني للمناظر الطبيعية ، ولهذا لم يكن محض صدفة ان يتفق انتشاره السريع مع العصر الذهبي لفن التصوير . وفيما يتعلق بالمساهمة الفنية الابداعية للحفار نجد انها كانت اقل بالنسبة للحفار على النحاس منها بالنسبة للحفار على الخشب . وهذا لايعني ان الحفارين على النحاس لم يكن لديهم مواهب فنية ، فضلاً عن البراعة الكبيرة ؛ فقد وجد بين الحفارين فنانون موهوبون نالوا شهرة واسعة كحفارين على النحاس من امثال السويسري ماثيو مريان وغيره .

ولقد ساد في اواسط القرن السابع عشر طراز خليط في زخرفة الكتاب وهو طراز خليط من الرمزية والواقعية امتزجا كل الامتزاج في شكل فخم انيق لابراز صور الكتاب في اطار فني جميل .

ولعل اشهر رسام تميز آنذاك بهذا النوع من الصور هو الرسام الشهير روبينزRubens ، وتعين صوره وصور تلاميذه اتجاه الذوق الفني في ذلك العصر نحو الصور الرمزية ؛ وان كانت عبقرية الرسام في فن الصور لم تقل عما كانت عليه ، بحيث نجد في هذه الصور ، على الرغم من فخامة مظهرها وبعد رموزها ، براعة فنية يندر وجودها في زخرفة الكتب في هذا العصر .

كذلك ازدهر فن الحفر على النحاس في فرنسا ابان القرن االسابع عشر ازدهاراً كبيراً ونبغ فيها رسامون فنانون رفعوا هذا الفن الى مرتبة عالية . وقد

اشتهر ليونارغولتيهGualtiex كحفار لصور الاشخاص ـ الذي صار تدريجياً من اكثر ميادين النشاط الفني انتاجاً . كذلك برز روبير نانتي وتلاميذه وقد تخصصوا في صور الاشخاص المحفورة واخرجوا عدداً كبيراً من الصور المواجهة للعنوان التي تمثل اما صورة المؤلف ، او صورة شخصية لرجل عظيم اهدى الكتاب اليه .

على ان اشهر حفاري الصور على النحاس في فرنسا في القرن السابع عشر فهو جاك كالو الذي عاش في ايطاليا ثم استدعاه ملك فرنسا لويس الثالث عشر الى بلاطه في باريس . ولقد تأثر كالو بالفن الايطالي ولذا ادخل هذا الفن الى فرنسا . ومن اهم اعماله التي رسمها وحفرها بنفسه الصور التي الحقها بكتاب نور الدير الذي ظهر سنة ١٦٤٦ م . ولم يكن كالو مجرد رسام بارع دقيق الملاحظة موهوب عنده الكثير من الحماس الممزوج بروح الفكاهة فقط ، وانما كان فوق ذلك صانعاً بلغ القمة حتى انه ابتكر طريقة لتغطية اللوحة النحاسية وحفرها بالحامض عدة مرات متوالية مما يعطي الصورة المحفورة مظهراً مبتكراً للظلال والابعاد .

ولقد اثرت عبقرية كالو أيما تأثير في الكثير من معاصريه او خلفائه المباشرين ، ولعل اشهر هؤلاء كان ابراهام بوس الذي حاكى كالو محاكاة تامة لما ابداه في صوره العديدة المتتابعة ورسومه للكتب ، من قدرة على محاكاة الطبيعة بصدق وعمق ، مما جعل اعمال ابراهام بوس هذا وثائق هامة عن حياة فرنسا في عصره .

ومع هذا فان اكبر اسم في فن الحفر على النحاس في فرنسا خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر هو لوكلير . كان لوكلير تلميذاً لكالو ، وكان شغوفاً بالرياضيات ، فرسم مجموعة من الاشكال التي تختلط فيها الخطوط الهندسية الجامدة بمناظر الطبيعة الجميلة . ويجب اعتباره احد الرواد الاوائل في فن الزخارف الصغيرة التي ازدهرت كل الازدهار فيما بعد .

واذا انتقلنا الآن الى بحث التجليد الفني للكتب وجدنا هناك في المانيا اتجاهاً نحو التجليدات البارزة بضغفط اللوحات المعدنية ، ثم اخترعت العجلة الصغيرة فكانت الزخرفة تتم باستعمال هذه العجلة الصغيرة . ثم انتشر بعد ذلك التذهيب كما عم في الزخرفة استعمال الرسوم الهندسية العربية والدوائر المتداخلة التي

اشتهرت بها التجليدات الايطالية سابقاً . وقد صنعت تجليدات فاخرة جداً للملوك والحكام آنذاك .

كذلك انتشر فن التجليد المطبوع بالذهب والمتأثر بالمؤثرات الايطالية في فرنسا في عهد ملوكها لويس الثاني عشر وفرنسوا الاول وهنري الثاني وزوجته . وقد امتازت هذه التجليدات كلها بالاناقة وبغناها بالزخارف وبالتذهيب وبالروح الفنية المتمثلة فيها .

اما معظم التجليدات التي ظهرت في القرن السابع عشر فمن النوع العادي الذي لايعود الى ذلك النوع الفاخر الذي ساد في القرن السابق ، اذ انها كانت مجرد تجليدات للاستعمال العادي ، ولكن الملوك والاغنياء والهواة لم يقنعوا بذاك وانما اوجدوا لانفسهم تجليدات فاخرة سادت فيها طرز فنية متعددة .

واذا انتقلنا الى بحث الجوانب الاقتصادية للكتاب في القرنين السادس عشر والسابع عشر نجد ان هذين القرنين ، اللذين زاد فيهما انتاج الكتب زيادة هائلة ، كانا عصرين سيئين بالنسبة لمصير الكتب ، ولاسيما القرن السابع عشر الذي كان مليئاً بالحروب وفيه اتلفت كثير من الكتب وصودر كثير منها ونهب عدد هائل من المكتبات في ارجاء اوربا .

اسواق الكتب في القرن السادس عشر في المانيا :

اعتاد جميع تجار الكتب ـ ناشرين ووسطاء ـ ان يجتمعوا مرتين كل عام في الربيع والخريف بسوق مدينة فرانكفورت ، حيث يزاولون تجارة الكتب عن طريق المبادلة بها ورقة بورقة بحيث كانت المحلات التجارية تفيض بالحياة والعمل ، وترتب على ذلك رحيل اصحاب المكتبات كلهم من ايطاليا وفرنسا والاراضي الواطئة الى هذه السوق بفضل موقع المدينة الذي جعل منها احد المراكز الهامة في اوربا في ذلك العصر . اما حي اصحاب دور الكتب في هذه المدينة فكان يقع في الجانب الجنوبي منها حيث صار من المعتاد رؤية البراميل الضخمة المكدسة التي كانت تستخدم عادة في ذلك العصر في شحن الكتب . ولقد بلغ من اهمية سوق فرانكفورت ومعرضها للكتب ان سمح لها ان تراقب كتبها بنفسها على الرغم من

ان بقية المدن الالمانية كانت تحت سلطة الرقابة الامبراطورية .

ثم فاق سوق لاينبريغ بعد ذلك في الاهمية سوق فرانكفورت ، بحيث ظلت لاينبريغ حتى القرن العشرين مركزاً مهماً من مراكز الكتب الالمانية . وقد بدىء في سنة ١٥٦٤ م في طبع قوائم الكتب التي كانت تباع في السوق ، ومن قوائم السوق هذه خرجت البيبلوغرافيا الالمانية التي تصدر كل سنة مرتين للكتب الالمانية .

ولقد وجد اصحاب المطابع الالمانية انفسهم ـ وهم وسط معارك الاصلاح الديني ـ منساقين هم ايضاً للمشاركة في هذا النضال بين انصار الاراء القديمة والاراء الجديدة ، ووجدوا انفسهم مضطرين للانضمام الى احد المعسكرين . اما اغلبية المطابع الالمانية الكبيرة فكانت في ايدي البروتستانت ، بينما بقيت مطابع مدن كولونيا ومنيز وحدها تقوم بدور ما في خدمة الكاثوليك بحيث لم يظهر نشاط الطابعين والناشرين في المانيا الجنوبية الا عند قيام حركة الاصلاح الكاثوليكي ، بل وبعدها . ولقد اثار الاصلاح البروتستانتي نشاطاً ادبياً واسعاً ودعا الى نشر الثقافة والكلمة المطبوعة بين اكبر عدد ممكن من البشر ، الا انه كان نذيراً بالقضاء على عدد كبير من الكتب الموجودة ، ذلك انه اضطر ، في نضاله ضد الكنيسة الكاثوليكية ، الى مهاجمة المطبوعات البابوية . ومن المؤكد ان كثيراً من المخطوطات القديمة والمطبوعات الاولى قد نالها العبث في تلك الفترة المضطربة .

كذلك ساهمت الحروب التي نشبت في المانيا في القرن السادس عشر ، وخاصة حرب الفلاحين التي نشبت في المانيا ابتداءً من سنة ١٥٢٥ م في اندثار مكتبات الاديرة حيث بلغ عدد الاديرة التي نهبت في احدى مقاطعات المانيا (ثورنجيا) سبعين ديراً دمرت مكتباتها .

ويوجد تقارير تثبت المصير المؤلم الذي لقيته مكتبات الاديرة التي كانت في انحاء البلاد التي نشبت فيها الاضطرابات ، حيث احرقت الكتب او مزقت او القيت في الماء او بيعت في الوزن . وحدث ذلك ايضاً فيما بعد في كثير من مكتبات الاديرة في فرنسا في عصر الحروب الدينية كما حدث في مكتبات اديرة فلوري وكلوني .

ومع ذلك يجب الا نعد رجال الاصلاح الديني مسؤولين كلياً عما حدث للكتب والمخطوطات ، فقد كان هناك عوامل اخرى ساهمت في هذا التدمير الذي حدث للكتب ، كما وان عنف الصراع بين الطرفين ادى الى ما ادى ، علماً ان الكنيسة اللوثرية لم تغفل عن قيمة مخطوطات العصر الوسيط عقب فورة نضالها الاول ، من ذلك قرارها الذي اصدرته سنة ١٥٧٧ م وينص على ان (الكتب الكنيسة القديمة مثل كتب القداس والمزامير وكتب التوراة المدونة على الورق او الرق لاينبغي التخلص منها او استعمالها للتجليد) .

واخيراً يجب ان نذكر ان لوثر في رسالته التي وجهها الى مستشاري جميع المدن الالمانية الكبرى سنة ١٥٢٤ م يعلن بحزم (عدم ادخار ادنى جهد او مال في سبيل تأسيس محال لبيع الكتب ومكتبات عامة جيدة ، وبخاصة في المدن الكبرى) .

ولقد ازدهرت صناعة وتجارة الكتب في هولندا في القرن السادس عشر ، وقد رأينا سابقاً كيف ازدهرت مؤسسة الزفير في هولندا وكيف اتسع نشاطها في ميدان تجارة الكتب اتساعاً فاق نشاط كل من عاصرها . وقد نجح اعضاء هذه الاسرة بعقد صفقات ضخمة مع انكلترا ، ذلك ان كل تجارة الكتب التي قامت بين انكلترا والقارة الاوربية كانت تمر حينئذٍ بهولندا ، وكان لألزفير في هذا المضمار المكانة الاولى .

ولقد آلت حروف مؤسسة الزفير الطباعية في القرن الثامن عشر الى اسرة اخرى شهيرة من الطابعين الهولنديين وهي اسرة أنشيديهEnchede's في مدينة هارلم . ويحتمل ان هذه المؤسسة اوجدها احد افراد الاسرة سنة ١٧٠٣ م ، ولازالت هذه المؤسسة موجودة حتى اليوم وهي تملك ثروة من الحروف القديمة والجديدة تفوق ماعداها من دور المطابع الاوربية .

بيع الكتب بالمزاد في اوربا في القرن السابع عشر :

احتلت هولندا في القرن السابع عشر مكانة كبيرة في تجارة الكتب الاوربية ، حتى ان فرنسا على الرغم من ازدهارها الادبي اللامع ، لم تقم بالدور الاول في هذا المجال ، مما جعل الادب الفرنسي يدين بمعظم انتشاره الى التقليدات الهولندية . ولكن برع الفرنسيون في ميدان هواية جمع الكتب ؛ اذ ان فرنسا زخرت في هذا القرن بالملوك والنبلاء ورجال الدولة والاغنياء الذين كان همهم جمع الكتب الفخمة النادرة لمجرد الجمع حتى يقال : عند احدهم مكتبة رائعة ، مما اثار السخرية من امثال هؤلاء . وكان هم هؤلاء الاول فخامة الشكل ، وهي ميزة فرنسا التي فاقت بها دول اوربا منذ البداية .

كذلك ظهر في السنوات الاولى من القرن السابع عشر شكل جديد من اشكال تجارة الكتب ، حينما بدأت تدخل ميدان المزادات العامة لتباع فيها لمن يدفع اغلى ثمن . وهنا ايضاً كانت هولندا هي الرائدة في هذا الميدان ، وقد تمت في ليدن المبيعات الاولى للكتب بالمزاد .

وما لبث التجار ان ادركوا انهم اهتدوا الى طريقة لعقد صفقات تضمن مصلحة الشاري والبائع على حد سواء ، ولكن مالبثت ان ارتفعت الشكاوى من ان تجار الكتب القائمين على هذا النوع من المبيعات قد بدأوا يستغلون الفرص للتخلص من بعض الكتب التافهة ، وذلك عن طريق تصريفها خلسة ضمن الكتب المباعة بالمزاد . وكما يحدث اليوم كان يوزع على المتزايدين فهرس مطبوع للكتب المعروضة للبيع . وكان هذا الفهرس يقسم الكتب حسب احجامها كحجم النصف والربع والثمن .

ومالبثت عادة بيع الكتب بالمزاد العلني في هولندا ان لفتت انظار البلدان الاجنبية فاتخذت بذلك تدريجياً اهمية دولية . وقد ادخل هذه العادة الى انكلترا احد رجال الدين الانكليز الذي اقام في هولندا فترة من الوقت ، وكان ذلك سنة ١٦٧٦ م .

ولم يخلُ جو مزادات الكتب من الجو المثير الذي يصاحب عادة كل المزادات الاخرى . ومع ذلك فلم يزدهر انتشار مزادات الكتب الا في القرن الثامن عشر .

وقد انتشرت هذا الطريقة أيضاً في المانيا وفرنسا . واذا اردنا ان نبحث العوامل التي اثرت على صناعة الكتاب وتجرته في المانيا خلال القرن السابع عشر لاحظنا ان حرب الثلاثين عاماً التي نشبت في المانيا بين سنتي ١٦١٨ و١٦٤٨ م كانت ذات اثر مدمر على اقتصاد المانيا ككل . وقد نال الكتاب حصته كاملة من دمار هذه الحرب . ذلك ان حرب الثلاثين عاماً استنفذت قوى المانيا سياسياً واقتصادياً ، كما تسببت في حدوث فقر شامل ، تلاه صعف في الثقافة العامة لم يزل الا تدريجياً . وقد حدث مثل ذلك في فرنسا قبل ذلك ببضعة عقود من السنين في عهد الحروب الدينية ١٥٦٢ ـ ١٥٩٨ م . كما وان الصراع الدامي والانقلاب الشامل في الحياة خلال تلك الفترة كان وبالاً على ثقافة الدراسات الادبية وهواية الكتب .

أزمة الكتاب الالماني :

لمعرفة تأثير تلك الحرب المدمرة على المانيا نذكر انه في سنة ١٦٣٥ م لم يرسل الناشرون الالمان الى اسواق فرانكفورت ولاينبرغ سوى ٢٨٦ كتاباً جديداً ، في مقابل ١٣٥٨ كتاباً عام ١٦١٣ م . ولم يعد الانتاج الى مستواه القديم الا في اواسط القرن الثامن عشر ، وهي نسبة تتفق تماماً مع التغييرات التي طرأت على عدد السكان ومستواهم الثقافي . وكان هذا التدهور هو الذي هيأ للهولنديين فرصة رفع مستواهم وبيع انتاجهم الى حد كبير . وقد عانت تجارة الكتب الكثير من التقليد الذي جعل حقوق الناشرين حبراً على ورق ، مما اضطر الكثيرين الى محاولة درء هذا الخطر بالحصول على امتيازات كان من مساوئها عدم امكان تنفيذها بدقة وبخاصة في بلد لم يكن موحداً كالمانيا .

حرفة الكتاب وتجارته في المانيا وفرنسا في القرن السابع عشر :

آ ـ المراكز الكبرى لمتاجر الكتب الألمانية :

شهدت متاجر الكتب الالمانية خلال القرن السابع عشر انتقال مركز الثقل في تجارتها من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . وكانت سوق الكتب في لاينبرغ قد ازدهرت في نهاية القرن السادس عشر ازدهاراً كبيراً حيث بدأت فهارس هذه السوق في الظهور من سنة ١٥٩٤ م . على ان حرب الثلاثين عاماً القت بهذه السوق مرة اخرى في دائرة الاهمال بحيث احتفظ سوق فرانكفورت القديم بسيادته حتى حوالي عام ١٦٨٠ م عندما استعادت لاينبرغ المكانة الاولى وبقيت بيدها حتى نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ م . كذلك صارت مدن اخرى مثل ينيا ودرسدن مراكز هامة لتجارة الكتب في نفس الوقت ؛ وقد اضمحلت نشاطات مدن اخرى كان لها دور لامع في تجارة الكتب في الماضي مثل ستراسبورغ وكولونيا . وكان هذا التغيير مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بتقهقر المطبوعات اللاتينية وازدهار المطبوعات الالمانية .

ب ـ الطابعون والناشرون :

كان تجار الكتب ، اما ناشرين اووسطاء ، وان كانوا غالباً مايزاولون العملين معاً ، على ان احدى الصفتين ظلت غالبة على الاخرى على الدوام .

ولم يعد الامر متعلقاً بالجمع بين مهنتي الطابع وتاجر الكتب ، في يد واحدة ، اذ بدأ انفصال فرعي الصناعة احدهما عن الآخر . ومع هذا فقد ظلت الى ذلك الوقت فئة من الطابعين كانوا في الوقت ذاته من الناشرين . وهؤلاء هم الذين كانوا طابعي الحكومة والمجالس والدواوين والجامعات . وكان لهم ، بهذه الصفة ، امتياز طبع ونشر الوثائق الرسمية للسلطات والمؤسسات ، كما كان لهم ايضاً حق احتكار طبع الكتب المدرسية وكتب تعليم اصول الدين والتقاويم والجرائد ، كما التزموا بتقديم النسخ الاجبارية للدولة عن كل طبعة من طبعاتهم ، فضلاً عن التزامهم حدود اسعار معينة ، مع التقيد باستخدم مواد جيدة في صناعتهم . وقد تمتعوا في مقابل ذلك بامتيازات عدة : منها الاعفاء من الضرائب

والفوائد الجمركية ومجانية السكن . ولذا لانعجب اذ رأينا هؤلاء المحظوظين موضع حسد غيرهم من الطابعين والناشرين .

ج ـ المجلدون تجار الكتب : تجارة الكتب الصغرى .

يلاحظ من جانب آخر حدوث مخالفات أخرى في سائر ميادين تجارة الكتب . من ذلك مافعله المجلدون في المدن الصغرى ـ حيث كانت صناعتهم لاتدر عليهم ارباحاً كافية ـ من توسيع ميدان نشاطهم غالباً للاشتغال بالتجارة بالورق والكتب الشعبية الرخيصة والكتب الصغيرة ، كالكتب الوعظية والشعبية وتفسير الاحلام والأحاجي والتقاويم وما الى ذلك . وكان هناك ايضاً مؤسسات هامة للتجليد مضطرة للانسياق في ميدان تجارة الكتب ، بسبب ان بعض الناشرين كانوا يجلدون كتبهم الجديدة ، ويدفعون ثمن واجور هذه التجليدات كتباً اخرى جديدة يعيد المجلدون بيعها لحسابهم الخاص . ولقد اثارت هذه الاوضاع تعارضاً بين مصالح المجلدين ومصالح الوسطاء ؛ وبعد جدل طويل ومثير توصل الطرفان الى اتفاق لم يعد للمجلدين حق الاتجار الا في نطاق الكتب الصغرى .

د ـ الرقابة :

اذا كانت سوق الكتب قد عانت الكثير من الخلافات التي قامت بين التجار والصناع ، فقد قدر لها ان تواجه صعوبات من نوع آخر ؛ فمنذ عهد الطباعة الاول كان لابد من اخذ الرقابة بعين الاعتبار .

والرقابة نوعان : **دينية وسياسية** .

فقد خشيت الكنيسة من تسرب الافكار المناهضة للعقائد التي تدين بها الكنيسة الرسمية عبر الكتب التي تنتجها المطابع ، فحاولت مراقبة مايطبع . فقد اصدر رئيس اساقفة منيز عام ١٤٨٩ م مرسوماً في هذا الموضوع ؛ ثم تلته بعد ذلك عدة مراسيم بابوية تعلن صراحة وجوب مراقبة المطابع لحماية الكنيسة من خطر نشر المؤلفات الالحادية . وفي عام ١٥٦٣ م بدأت الكنيسة الكاثوليكية بنشر قوائمها باسماء الكتب المحرمة والتي يجب على المؤمنين بالمذهب الكثوليكي الا

يقرأوها لانها محرمة . اما في جامعة باريس فكانت كلية اللاهوت فيها مختصة منذ عام ١٥٢٦ م برقابة جميع المؤلفات الدينية . وقد استعملت هذا الامتياز خاصة سنة ١٥٣٧ م ابان الحروب الدينية بغية تنفيذ المحاكمات الصارمة ضد الطابعين العاملين في خدمة انصار اللوثرية .

كذلك شاهد القرن السابع عشر بداية رقابة السلطة السياسية على المطبوعات والمطابع وان كان دورها بدأ ضئيلاً في هذا القرن ، ثم زاد شيئاً فشيئاً وتطور حتى اصبح دوراً هاماً كل الاهمية في القرن الثامن عشر . ولذا يمكن القول بحق ان القرن الساتبع عشر هو قرن الرقابة الدينية .

كان مقصد الرقابة اول الامر الدفاع عن الدين الرسمي والاخلاق ، وان كان من مبادئها ـ في نفس الوقت ـ تمثيل مصالح الدولة ايضاً ، ولذا كان لابد للحكام من مزاولة تلك السلطة داخل حدود بلادهم ؛ ومن اجل ذلك كانت الرقابة تزاول في مختلف المقاطعات الالمانية بطرق متباينة للغاية وبصرامة متفاوتة في حدتها بين ولاية واخرى .

على ان لجنة الكتب الامبراطورية ـ وهي اللجنة التي اسسها امبراطور المانيا باعتباره رأس الحكام الالمان لمزاولة الرقابة ـ كانت مهمتها ، في نفس الوقت ، تقوم على منع الاعتداء على الامتيازات الممنوحة لتجار الكتب . ولكن الوضع في فرنسا اقتضى ان يصدر مرسوم سنة ١٥٦٣ م يحرم (على اي شخص اياً كانت حالته وظروفه ان ينشر او يطبع اي كتاب او رسائل او غيرها ، ويعاقب كل مخالف لهذا المرسوم بالشنق والخنق) . على ان هذا القانون لم ينفذ بدقة في عهد هنري الرابع الذي امتاز عهده بالتسامح الكبير ؛ الا ان الرقابة مالبثت ان عادت الى شدتها وصرامتها في عهد لويس الثالث عشر ووزيره ريشيليو . وتعززت سلطة الرقابة في عهد الوزير مازاران اثناء طفولة لويس الرابع عشر . ولقد نشبت في فرنسا ثورة الفروند ضد مازاران وتحكمه في امور الدولة ، وكان من الخطر الماحق اثناء تلك الحرب ان يجرؤ المرء على طبع وبيع المازارانيات ـ وهي كتب تتحدث عن فضائح مازاران ومساوئه ـ والتي نشرت مع ذلك بالالاف . وعلى الرغم من ضخامة الجهاز القانوني المحيط بالرقابة ، الا انه لم يكن من النادر ان يفلت كتاب

من عيون الشبكة المراقبة . ونعلم ايضاً من كثير من الامثلة ان المنع كان غالباً بمثابة اعلان ولم يؤد الا الى زيادة بيع الكتب سراً .

هـ ـ التزوير وحق الأمتياز :

يلاحظ ان التزوير قد صار حوالي ذلك الوقت وباءً حقيقياً اشد من الرقابة بكثير بحيث قامت محاولة لحماية كل كتاب باقامة حق امتياز له . واقدم حق امتياز يرجع في المانيا الى اوائل القرن السادس عشر .

وقد حرم بمقتضاه اعادة طبع الكتاب . اما في حالة منح صاحب الكتاب امتيازاً امبراطورياً فمعنى ذلك ان قرار الحظر يشمل كل المانيا . وكان هذا الحق يسري لمدة سنة واحدة او اكثر . ولهذا الغرض كان الامر لصاحب الامتياز بالحماية يطبع في اول الكتاب . اما العقوبة ، عقوبة مخالفة هذا القرار ، فكانت توجب دفع غرامة تتفاوت قلة وكثرة . ومع كل هذا فقد ظل التزوير وانتشر ، وكثيراً ماشوه المزورون الطبعة الاصلية للكتاب ، وكانوا احياناً يضيفون اليه ملاحق وذيولاً ، لم يكن لها ادنى صلة بالطبعة الاصلية للكتاب .

ولقد سرى هذا الداء الى فرنسا ووجد فيها مزورون كثيرون حتى صدر مرسوم ملكي سنة ١٦٨٦ م يتعرض لمسألة التزوير ويحاول منعها وعلاجها . صدر هذا المرسوم اساساً لاعادة تنظيم تجارة الكتب في فرنسا ؛ مما وضع حداً لحالة الفوضى التي كانت سائدة فيها . وقد نص المرسوم ـ فيما يختص بباريس ـ على تحديد عدد التجار الطابعين بستة وثلاثين شخصاً ، وان يكونو يعرفون اليونانية واللاتينية ، وان يستقروا في حي الجامعة . ولم يكن عدد الرقباء الملكيين المكلفين بمراقبتهم يقل عن تسعة وسبعين رقيباً . كما كان للتجار والطابعين غرفة نقابية يرأسها نقيب واربعة مساعدين . هذا وقد حظيت المطابع والمكتبات التجارية بحرية كبيرة نسبياً طيلة القرن السابع عشر ، كما حظيت بظروف ملائمة لنموها في الغالب . وكانت المحافظة على حق الامتياز في فرنسا اسهل منها في المانيا المفككة . كما زاد في سهولة الاشراف عليها في فرنسا طبع اغلب الكتب في باريس وعدد قليل من المدن الاخرى . ولكن لم يستطع التجار والطابعون الفرنسيون الدفاع عن حقوقهم ضد تزويرات الهولنديين التي كانت ذائعة غاية الذيوع .

و ـ اسعار الكتب :

لم تكن اسعار الكتب قد تحددت بعد في القرن السابع عشر . وعلى الرغم من ان الناشر حدد ثمن بيع الكتاب في الاسواق ، الا ان الاضافات التي كان يضيفها التجار المحليون كانت متفاوتة كل التفاوت ؛ ولم يبدأ نشر فهارس التجار مبيناً فيها اسعار الكتب ، في المانيا ، الا بعد السنوات الاولى من القرن الثامن عشر .

وبموازنة تلك الاسعار بالاسعار الحالية ، يلاحظ انها كانت مرتفعة في ذلك الوقت . من امثلة ذلك في ميدان الادب الشعبي ، ان عاملاً من مدينة لاينبرغ دفع مبلغ سبعة غروسGros (وهي اصل كلمة غرش المستعملة باللغة العربية) من اجل كتاب الاناشيد سنة ١٧٠٠ م وهو ما يعادل اجره عن يوم كامل . على ان الانتاج المحلي ـ اذا ما قورن بالاسعار المتداولة للكتب الاجنبية في المانيا آنذاك ـ كان سعره اعلى بقليل ويتراوح بين بنسين وخمسة بنسات المانية للورقة الواحدة . على حين نجد الطبعات الالزيفيرية المنشورة سنة ١٦٩٢ م يصل ثمن الورقة الواحدة الى اثنى عشر بنساً ، وهو ثمن يتفق مع اخراج اعلى بكثير . ذلك لان انتاج الكتاب في القرن السابع عشر لم يصل ، بشكل عام ، الى مستوى رفيع .

ز ـ العادات النقابية والاستبداد النقابي في المانيا :

تحول صهر الحروف تدريجياً الى مهنة خاصة ، وذلك بعد ما كان يقوم به الطابع نفسه اول الامر ، على حين احتمت مهنة الطابعين وراء حواجز العادات النقابية الصارمة .

وكانت مدة المران للصانع تتراوح بين اربعة اعوام وثمانية ، وحتى بعد نتهاء التمرين كان على الصبي ان يمضي بعض الوقت في مرحلة انتقالية قبل ان يصبح زميلاً في نقابة الطابعين . ولبلوغ ذلك كان عليه ان يرشحه احد الاعضاء القدامى وان يقبل ترشيحه ، بمعنى انه كان عليه الخضوع لسلسلة من المراسم تتفاوت في غرابتها وغموضها ، وكانت عبارة عن سلسلة من الاعمال الرمزية التي

كانت مطبقة في جامعات العصور الوسطى عندما كانت تستقبل تلاميذها الجدد الصغار ، فضلاً عن ان المرشح كان عليه ان يدفع ضريبة معينة وان يقيم وليمة لزملائه .

وكان الزميل ، بعد ان يصبح عضواً في النقابة ، يمضي بضع سنوات ، غالباً ، في التجوال في المانيا ، حيث كان يقابله زملاؤه بالترحاب حيثما حل او نزل ، اذا كان ملماً بعرف النقابة وعاداتها . وكان عليه ـ مقابل ذلك ـ الا يقبل اي عمل اطلاقاً في اي مطبعة من المطابع السرية العديدة التي كانت تعيش ـ دون ترخيص من الرقابة ـ على طبع كتب جدلية مجهولة المؤلف اومنشورات تشهير . ومن المؤكد ان النظام الصارم الذي خضعت له النقابات فيما بعد ، كان في اول امره نظاماً دفاعياً عن الطابعين ضد منافسة المطابع السرية . غير ان تلك الانظمة النقابية مالبثت ان فسدت حتى اصبحت استبداداً حقيقياً . ولقد جرى نفس الشيء في الدول الاسكندنافيةحيث كانت المطابع غالباً في ايدي المان وواقعة تحت النفوذ الالماني كلياً . اما الطابعون في هولندا وفرنسا وانكلترا فقد رفضوا هذا الاستبداد النقابي . ولم تختف تلك العادات النقابية اختفاء تاماً الا مع بداية القرن التاسع عشر .

نشوء البيبليوغرافيات :

يعتبر نشوء البيبليوغرافيات بانواعها المختلفة نتيجة من نتائج اختراع الطباعة وبروز تجارة الكتب . فقد ازدهرت تجارة الكتب في القرن السادس عشر في اوربا وبشكل خاص في المانيا ، حيث وجد فيها مركزان لتجارة الكتب ، وذلك على مستوى القارة الاوربية : هما سوق فرانكفزرت وسوق لاينبرغ . فقد وسع بائعوا الكتب المعلومات عن الكتب واعتاد المشرفون على سوق فرانكفورت ان يصدروافهرس سوق كتب فرانكفورت الذي يمثل حصراً شبه كامل وشبه تام للاداب الاوربية . ولقد قام الطبيب الالماني في اواسط القرن السادس عشر بعمل ماسمي باسم البيبليوغرافيا العالميةBibliotheca Universalis . كما وان البيبليوغرافيا القومية ظهرت سنة ١٥٩٥ م . وقد تطورت تحت تأثير عدد من

العوامل حتى اصبحت ذات جوانب متعددة ، وذلك في اوائل القرن الثامن عشر .

ولقد تأثرت المكتبات بعاملين ونشاطين اساسيين : فقد اصبح بناء مجموعات الكتب اسهل ذلك لان المعلومات عن الكتب الجديدة اصبحت جاهزة ، وان لم تكن دقيقة كل الدقة . وقد قدم فهرس سوق فرانكفورت ، الذي مر ذكره آنفاً ، وبعض الفهارس التي دخلت هذا المجال بعد فترة ثبتاً باسماء الاعمال اللاتينية والالمانية الموجودة والمتداولة بحرية في السوق البروتستانتية . كذلك كان يرد في هذه الفهارس ، عرضاً ، بعض العناوين الفرنسية والايطالية والاسبانية ، ثم ظهرت بعد فترة العناوين الانكليزية .

ولقد كان التطبيق العملي الغالب في انكلترا هو ان تسجل الكتب بصرف النظر عما اذا كانت موجودة في محال بيع الكتب . وقد ساعدت هذه الظاهرة ، التي ظهرت في اماكن اخرى ، على التفريق بين البيبليوغرافيا القومية والبيبليوغرافيا التجارية . كذلك تميزت البيبليوغرافيات الانكليزية بالتركيز التام والانتباه الى المنشورات الانكليزية . ولم تظهر في انكلترا بيبليوغرافيا جارية حتى سنة ١٦١٨ م وذلك عندما اخذ جون بيلBill ، الذي خدم بودلي وزار معرض فرانكفورت بانتظام من سنة ١٦٠٥ الى سنة ١٦٢٢ م ، على عاتقه اصدار طبعة لندنية لفهارس المعرض . ولقد تجاهل في منشوره هذا الاعمال الالمانية ، ولكنه اثبت العناوين اللاتينية . ثم اصدر بيل نفسه سنة ١٦٢٢ م لائحة بيبليوغرافية اخرى لها علاقة بالمعرض ، ولكن يد الرقابة الصارمة التي مارستها الكنيسة الانكليزية على الكتب والمطبوعات في عهد تشارلس الاول ضررت وانقصت انقاصاً كبيراً تجارة الكتب في انكلترا اكثر مما ضررتها في اوربا حروب الثلاثين عاماً . وصدر سنة ١٦٣١ م فهرس آخر حوى بعض العناوين ونشر غفلاً من اسم المؤلف ، ولم يصدر غيره في انكلترا حتى نهاية حكم كرومويل .

ولقد حوت البيبليوغرافيا التجارية اللندنية التي اصدرها وليم سنة ١٦٥٨ م اكثر من ٣٠٠٠ عنوان هي اكثر الكتب المباعة في انكلترا ، واغلبها حديث ومهم وباللغة الانكليزية ، وكلها في مخازنه ؛ ثم اصدر ذيلاً لها يحوي المنشورات بين

سنتي ١٦٥٨ و ١٦٥٩ م ويبلغ عددها -حوالي المائة ، وهو الاول من نوعه في انكلترا . ثم اصدر ذيلاً آخر سنة ١٦٦٠ م حوى مانشر خلال سنة واحدة ومقداره ٤٠٠ عنوان ، وهو آخر مااصدره .

واصدر طابع من امستردام بين سنتي ١٦٤٠ و ١٦٥٢ م اول بيبليوغرافيا جارية وطنية دورياً ، احياناً بشكل سنوي واحياناً بشكل نصف سنوي . وقد حوت ماتنتجه البلاد الواطئة من كتب ، وترتيب اللغات بحسب اللغات ، واللغة اللاتينية هي الغالبة .

وقام جاكوب في فرنسا فاصدر لائحة بيبليوغرافية باسماء الكتب التي كانت متداولة في باريس بين سنتي ١٦٤٣ و ١٦٤٤ م . كذلك اوجد نودي'Naude سجلاً للاعمال التي تنشر في فرنسا واصدره في نشرة سنة ١٦٥٤ م حوت اكثر من ٣٥٠٠ عمل ، من بينها ٢٣٥١ عملاً بالفرنسية ، وقد نشر من هذا العدد في باريس ٣١٠٠ عمل . ولكن حدوث اضطرابات عنيفة في فرنسا وغيرها عاقت متابعة هذا العمل الذي بدأه جاكوب ونودي وغيرهما .

ولقد توقف اصدار النشرات البيبليوغرافية القومية خلال حرب الثلاثين عاماً ١٦١٨ ـ ١٦٤٨ م . ولكن معرضي فرانكفورت ولاينبرغ نشطا بعد الحرب بشكل خاص . ولكن ظهور دور النشر الكبيرة الذي تم بعد فترة انقص كثيراً من اهمية هذين السوقين .

بروز النشرات الدورية :

ان اختراع الطباعة ، قد ادى الى تطورات اخرى في عالم الكتب والنشر ، بجانب نمو المكتبات . فقد ظهرت اشكال جديدة من المواد القرائية مثل الدوريات والجرائد والموسوعات .

فقد بدأت الدوريات بكراسة بدأت تصدر في القرن السادس عشر . وقد تطورت حتى اصبحت سلسلة غير منتظمة من الكراسات تربطها علاقة مابعضها ، ثم تطورت حتى اصبحت سجلاً سنوياً او كل سنتين مرة يحمل الانباء واخيراً وصلت اواخر القرن السابع عشر الى ان اتخذت شكل دورية منتظمة .

فقد تطورت الجريدة من نشرة الاخبار التي صدرت في القرن السادس عشر واصبحت عامة في اواخر القرن السابع عشر . فمنذ سنة ١٥٤٨ م بدأ طابعو فرانكفورت في اصدار نشرة اخبار لفترة قصيرة . كذلك ظهرت عدة منشورات من هذا النوع قبل سنة ١٦٠٠ م . ولكن اول جريدة صدرت بشكل منتظم هيAvisa Relation Oder Zeitung التي صدرت في ستراسبورغ سنة ١٦٠٩ م . كذلك صدرت اول جريدة في انكلترا على يد جون ارشرArcher سنة ١٦٢١ م . ولقد الغى الملك شارل سنة ١٦٢٥ م جميع نشرات الانباء واصبحت نادرة كل الندرة طوال القرن السابع عشر . ولقد صدرت في اواخر القرن السابع عشر الدوريات ، وكانت تتألف من اربع الى ثمان صفحات وتحوي آخر الانباء السياسية والعسكرية ، مع بعض الادب المعاصر واراء المحرر في عدد من الموضوعات المختلفة . وهناك ثلاث دوريات هي من اقدم الدوريات التي صدرت الاولىدورية العلماءJournal des Scavans التي بدأت تصدر في فرنسا سنة ١٦٦٥ م ، والثانيةوقائع جلسات الجمعية الفلسفية الملكيةفي انكلترا في نفس العام ، والثالثة دورية صدرت في المانيا سنة ١٦٨٢ م باللاتينية بعنوانActa Eruditorium . ثم تتابع صدور الدوريات في اواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ، ولقد كان اغلبها ذا حياة قصيرة مالم تتمتع بدعم سياسي او حكومي . وقد اصبحت الدوريات والصحف والمجلات والحوليات منتشرة في انكلترا بين الطبقات العليا في حدود سنة ١٧٥٠ م . وقد وجد مجلات عامة ومجلات اخبار مثلمجلة جنتلمان ، ودوريات ادبية مثل مجلة ريشارد ستيل تاتلرTatler ، ومجلة جوزيف اديسون المسماةSpectator ، وكتب حولية مهمة مثل السجل السنويThe Annual Register .

وهكذا توسع اثر الكلمة المطبوعة اكثر من ذي قبل ، واصبح للطابع مصدر جديد من مصادر الدخل للاغتناء .